

الفصل السابع

التربية والقيم الثقافية

القيم والثقافة

إن قيم الثقافة هي مثالياتها التي تستحق الكفاح من أجلها ، بعضها محددة مثل قيمة الأمانة وبعضها الآخر يشق تحديده مثل إيماننا في القيمة العليا للفرد . وبعضها مثل الوطنية دائماً على شفاه الناس بينما بعض منها مثل إمكان قياس الواقع ، نادراً ما يعترف بها .

ولا محل للشك في تنوع القيم الثقافية (١) ولنفكر في قيمة التنافس التي قد تبدو ضرورية جداً لطريقة الحياة الأمريكية إذ تدفع الأمريكيين دائماً على التقدم ، وهدفنا الدائم هو الكسب وأن نصل قبل غيرنا وأن نتسلق درجة أخرى في سلم لا نهاية له من الرفاهية والنجاح . (ولا ينكر ذلك بالطبع أن هناك قيماً أخرى في الاتجاه الآخر تجذب الأمريكي مثل الانسجام الجماعي والتعاون) . إلا أن التنافس مكروه لدى الكثير من الشعوب البدائية مثلما في حياة الهوبي إذ يتعلم الطفل ألا يكسب مباراة أو يز رفاق الفصل (٢) ويعتبر الحسد والتنافس من الجرائم البسيطة بين المكسيكيين . فالشخص في موقع السلطة عند المكسيكيين لا يعطى أوامر لرفاقه وإذا ما اقترح اتباع سلوك معين فإنه يفعل ذلك كشخص يعطى معرفته لهم وليس كشخص يسيطر على الآخرين بشخصيته أو مركزه . وما يتخذ من قرارات جماعية يصدر عن إجماع بدلاً من سيطرة الغالبية (٣) .

وبالرغم من أن قيمنا الثقافية تعم حياتنا فإنها لا تجعل منا صورياً متشابهة . ومن أسباب ذلك أن التغير الثقافي يبعد كثيراً عن التناسق . ولهذا تعايش القيم المتصارعة في ذات الثقافة وتؤكد القيم المختلفة التي يأخذ بها أفراد مختلفون . وتختلف الجماعات الاجتماعية في بعض قيمها وفي المجتمع الجمعي بشكل خاص حيث يتعرض الشخص لمجموعة كبيرة من هذه القيم بل أكثر من ذلك نجد أن كل شخص يترك بصمات تجربته الشخصية على قيم ثقافته كما يراها .

ويشق على الإنسان العادي أن ينظر إلى قيمة نظرة موضوعية مستقلة إذ يتعلم في طفولته أن يعتبرها عمومية ومطلقة ولهذا فلا مجال لتغييرها ويعجز الطفل عن فهم صلاحية أمر من الأمور إذا لم تقده للاعتقاد أن ذلك صالح للناس في كل مكان . بعض الأفعال مثل الكذب تعتبر على سبيل المثال أفعالا خاطئة بشكل عام ولكن لها ما يبررها في حالة جديتها بحيث يتعذر على طفل في العاشرة أن يدركها . بل زد على ذلك أن الرجل البالغ ما إن يكتسب ، وغالبا دون وعي ، تلك القيم خلال اكتسابه الخصائص الحضارية فإنها تدخل ضمن شخصيته وتؤثر تأثيراً كبيراً في تشكيلها .

وتتجه هذه القيم التي يقبلها جميع أفراد الثقافة إلى أن تصبح عمومية جداً ، ولهذا السبب يتعذر التحقق منها تماماً . ولنبحث بعض القيم التي نتفق عليها تقريباً وهي ضرورة إتاحة فرصة متكافئة أمام جميع الناس ليستفيدوا من مواهبهم ، أي ضرورة حصول جميع الناس على بعض الحقوق والحريات (مثل الحرية الدينية والمساواة أمام القانون) وضرورة حل المشاكل منطقياً ، ومن الملائم ديمقراطياً أن مراعاة هذه القيم يمكن أن يجعل الحياة أفضل للجميع . ولكن هل يحصل الجميع حقاً على فرصة متساوية حتى يؤدوا شيئاً خلال حياتهم ؟ هل يعملون جميعاً بمساواة أمام القانون ؟ وهل يمكن تحقيق تلك المساواة ؟ .

ثلاث قضايا تربوية

يتصل بدراسة علم الإنسان والتربية ثلاثة جوانب تتصل بالعلاقة بين القيم والثقافة بوجه خاص . أحدها هو التباين بين القيم الثقافية وممارستها الفعلية — أى التباين بين الجانب المثالى والواقعى فى الثقافة — والثانى : هو الصراع بين القيم التى تولدت عن التغير ، والثالث : هو عدم الاتساق بين القيم الثقافية السائدة وقيم الأقليات فى الثقافة الواحدة . ولنبحث كل ناحية منها على حدة .

المثالية ضد الواقعية فى الثقافة :

الصراع فى الثقافة : نظراً لعدم وجود ثقافة متكاملة فان مثالياتها تميل إلى الاختلاف عن تطبيقاتها . إذ تبيح كل ثقافة لأعضائها بعض الأهداف وبعض المعايير (أنماط سلوكية) حتى يبلغوها . وليست هذه المعايير بالضرورة أعظم كفاءة من غيرها سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة — فأغلب الثقافات تحظر مثلاً استخدام القوة أو الخداع لإحراز الأهداف — ولكنها كقاعدة تسير القيم الموجودة والنظم الثقافية . وتختلف هذه القيم فى الوزن الذى تحمله فقد تكون مما يوصى باتباعه أو يفضل أو مجرد ما يسمح به .

ولكن لما كانت الثقافة تبيح بعض الأعراف فان هذا لا يعنى دوام مراعاتها فكلما قلت فعالية الأعراف بسبب بلوغ أهداف الثقافة كلما ضعف الميل لاتباعها . وبالإضافة إلى ذلك ، كلما أجبرت الثقافة أعضائها للتركيز على أهدافها وقللت من تأكيدها للأعراف الموصلة إليها فنجد مرة أخرى قلة مراعاة هذه الأعراف . وهكذا يتهدد الثقافة سوء التنظيم (التفكك) حتى تصل فى الحقيقة إلى حالة يسميها دوركايم انعدام المعايير أى عدم الالتزام بالمعايير حينئذ لا تصلح المعايير الرسمية فى الاستجابة لواقع الحياة فى الثقافة (٤)

وفى أمريكا تمتدح دوماً بعض أهداف النجاح وبخاصة ما يتصل منها بالثروة ومظاهرها (المنزل الصيفى ، ورحلة الشتاء ، والطائرة الخاصة)

وذلك أكثر من الوسائل المعروفة لبلوغها . وتؤكد لنا ثقافتنا أن الإنسان الذى يعمل باجتهاد ، ويعمل عملاً إضافياً سينجح فى الحياة أى أنه سيجمع ما لا كثيراً إلا أن قلة من الناس من يصبحون أغنياء بالعمل وقتاً طويلاً وبمشقة لأن اصطلاح الغنى نسبي وأن حالة الغنى يتحتم بالضرورة أن تكون حالة خاصة بالأقلية وفقاً لتعريفها (ففى بلد المليونيرات نجد أن أصحاب البلايين هم الأغنياء) . ولم نذكر هنا معوقات النجاح الأخرى مثل الطبقة الاجتماعية أو الأصل أو الجنس والى قد لا تقف عقبة أمام ثمرة العمل الشاق ولكنها تحد من الفوائد التى يتيحها للعامل . وهكذا بالرغم من أن أحد الأعراف وهو العمل الشاق قد أجازته الثقافة حقيقة فنادر ما يودى إلى الثروة المرجوة إلا أن جميع الناس يدفعون للكفاح من أجل النجاح كما تحدده الثقافة . وقد يكون نتيجة لذلك ليس مجرد القلق أو الإحباط ولكن السلوك المعادى للمجتمع أيضاً إذ يسعى الناس إلى طرق أكثر فعالية بدلاً من المعايير الرسمية لإشباع بواعث النجاح المغروسة فيهم .

ولا يتسبب الافتقار للفرصة وحده فى السلوك المنحرف بل إن ذلك يعود إلى مزيج من الفرص غير الكافية والتلهيل لأهداف النجاح ليس من أجل الأقلية بل من أجل مجموع السكان . وتضع الثقافة أمام أعضائها بعض الأهداف إلا أن ظروف الثنافة تجعل الوسائل المعترف بها للوصول لهذه الأهداف غير فعالة بالنسبة لمعظم الناس . وبايجاز تثير الثقافة توقعات نادراً ما يمكن تحقيقها وفقاً لما تتيحه لهم من أساليب .

ولأذكر مزيداً من اختلافات بين النظرية والتطبيق فى الثقافة الأمريكية . فن ناحية نمجد المشروع الحر ومن ناحية أخرى نجد شركات قليلة تسيطر على الاقتصاد وقطاعات عريضة من هذا الاقتصاد مثل الدفاع والطيران الممولان من الحكومة الفيدرالية ، أما رجل الأعمال الصغير المستقل الذى يمتدح فى الغرف التجارية فتسحقه اقتصاديات الإنتاج الكبير ثم مرة أخرى

نجد امتداح الفردية إلا أن ما يحدث هو الاندماج والتجمع . أضف إلى ذلك ما نراه من تشجيع الشبان لتكوين صداقات مع الجنس الآخر منذ وقت مبكر والتزوج متأخراً ولكن الاتصال الجنسي قبل الزواج من الأمور المستهجنة . ثم نجد ، وهذا ما قررته سالفاً أن هناك امتعاضاً شائعاً من المعلم لأنه نظرى جداً وغير كفء عملياً كما أنه موضع شك إذا دخل حلبة السياسة أو التجارة أو الصناعة .

الصراع في التربية:

تتمكن مدارسنا بألف طريقة وطريقة أن تثبت وتدعم القيم الثقافية ولما كان معظم المديرين والاستشاريين من الطبقة الوسطى ، لذلك تعكس كثير من الممارسة التربوية ، وإن كان ذلك بشكل خفى اتجاهات هذه الطبقة (٥) . وبالرغم من اختلاف رجال التعليم في كثير من النواحي إلا أن جميعهم يحملون بعض القيم مثل أهمية سلطة البالغ والاحتياج للنظام والتعذيب وقيمة المعرفة والنجاح التربوى ، وصفات الطبقة الوسطى الشبيهة مثل الدقة والأدب وسلامة الحديث واحترام الملكية . كما تظهر القيم الثقافية في منهج المدرسة أيضاً إذ تقدم الدراسات الوطنية قيم الديمقراطية المفتوحة والحركة الجماعية وإمكانية تحسين مصير الإنسان . كما تتجه الدراسات التاريخية إلى شرح الثقافة من اتجاه مناسب لذلك (٦) .

كذلك تحوى الأنشطة والنظام المدرسى القيم المقبولة السائدة (٧) . إذ يتعلم الطفل في الفصل المواظبة والكتابة الواضحة والوفى في استعمال الورق والصمت عندما يتحدث المدرس . ويتأكد الباعث للمنافسة والتفوق في رفع التلميذ يده لإبداء المقترحات وإجابة الأسئلة . كما يتعلم في المباريات أن يكون عادلاً في اللعب ويأخذ دوره مع الآخرين ويتعلم من النوادي التفوق الذى يمارسه الضابط ، ويكتسب من احتفالات المدرسة الولاء لها والتضامن مع رفاقه الطلبة . إلا أن معرفته بهذه القيم لا تعنى اكتسابه لها حتى

تصبح قيمه الخاصة إذ تتدخل عوامل أخرى في الأمر مثل معايير مجموعة الرفاق ، وعدم تفضيل بعض المدرسين ، وربما عدم تحمس أبويه لتربيته •

ولا مفر من أن نجد المدرسة طرفا في هذا الصراع بين الثقافة المثالية والفعلية أو الواقعة . فهل تقوم المدرسة بتربية الطفل في الاتجاه الذى تتخذه بعض الأهداف النظرية المرغوبة أو تكيفه وفقاً لحقائق الثقافة الواقعة ؟ ويتحتم على الناس وفقاً للنظام الأخلاقى الديمقراطى أن يتعاونوا على إنجاز الأعمال إلا أن التنافس يغلب فى مجتمعنا . ولهذا فإن المدرسة تتردد بين تشجيع الأطفال على التعاون أو تشجيعهم على التنافس دون أن تتخذ موقفاً حازماً فى جانب أى من القيمتين . إننا نجد ضرورة حصول كل فرد على فرصة متكافئة ليتخذ له طريقاً عملياً فى حياته يتناسب مع مواهبه إلا أن ذلك لا يتيسر لأغلب النساء فى معظم الأعمال كى يحققوا النجاح . ولهذا تتردد المدرسة بين تشجيع البنات للاتجاه فى الحياة العملية التى تتاح لهن رسمياً وبين تمرينهن ليصبحن زوجات فى المنازل مادام أغلبهن يتخذن هذا الطريق . كما أن هناك اختلافاً بين الاعتقاد فى ضرورة تحرير التربية وفكر كل طالب مهما كانت خلفيته والحقيقة القائلة أن الكليات ذات سياسات انتقائية فى القبول بها . ومن هنا تتأرجح المدرسة بين التربية من أجل التنمية والثقافة والتربية من أجل الاستمرار فى الدراسة العالية .

ونجد أكبر اختلاف بين المثالية فى المساواة ودافع التفرقة فى استمرار كثير من المدارس والمؤسسات الاجتماعية فى تطبيق التفرقة بل إنه من الصعب حتى فى الجزء الأكبر من البلاد حيث لا توجد تفرقة رسمية أن يحصل الطالب الزنجى على التربية المناسبة مثل الطالب الأبيض ومن أحد الأسباب أن المدارس فى المناطق التى يقطنها الزوج تميز بسوء هيئة التدريس والإدارة ومن الأسباب الأخرى أن المدارس التى يغلب فيها الطلبة البيض تسيطر عليها . الاتجاهات البيضاء وهى التى لم يعتدها الطالب الزنجى كما يقع فى نفس الورطة

بعض الأقليات مثل : المكسيكيون والبرتوريكيون (٨) .

القيم التقليدية ضد القيم الجديدة

الصراع فى الثقافة : كلما تغيرت الثقافة - وليكن ذلك من الزراعة إلى الصناعة - فإن بعض أو كل القيم بها ستتغير أو يعاد تفسيرها وإن لم يكن ذلك بشكل مشترك أو على الفور . لقد كان تحول الولايات المتحدة إلى مجتمع ثرى سببا فى وضع القيم الخلقية البيوريتانية فى مقارنة مع قيم المجتمع الصناعى الذى يسعى للوفرة . ويتحتم على تجارة الأعمال كى تستمر فى النمو أن تغرى الناس باستهلاك كميات متزايدة من غير الضروريات ، وقد نتج عن ذلك تقهقر الزهد أمام الاستهلاك ، والتقهر أمام الشراء بالتقسيط (٩) . أما الناحية الجنسية وهى أول ما يميز ما ينصرف عنه الزاهد فقد تزايدت إثارته بالملابس ، والإعلان ، وأساليب الملاهى العامة . وقد تحول الإيمان بأهمية المستقبل إلى نظرة تدعو لضرورة الاستمتاع بالحاضر لأن المستقبل غير مضمون . ولقد حل التفكير الجماعى محل الاعتماد على النفس .

حقا إن بعض النقاد ينكرون أن نواة نظام القيم الأمريكى قد تغير على الإطلاق ويقول « تالكوت بارسونز » و « ووينستون هوايت » أن هذه النزاة هى مفهوم (الفردية الأدائية) أى الإيمان بأن الشخص عليه أن يهدف إلى تحقيق أنواع النجاح التى تسود مجتمعه (١٠) . ويرون اليوم أننا لازلنا نتوقع من الشخص أداءه العمل الشاق وألا يستجم حتى يحرز النجاح ، والذى تغير هو الغايات النوعية المزمع إحرازها وطرق إحرازها . ففى وقت من الأوقات كان الهدف الربح المادى عن طريق الاستثمار ، وكان النمط هو المقاول المستثمر . أما الآن فالهدف هو التنافس الكبير فى الدور المتخصص فى منظمة كبيرة ، ويتحقق الهدف بأداء دور مسئول حتى يتحقق قبوله . والنمط هنا هو المدير التنفيذى المرن (الموجه) وتبقى حقيقة وجود هذه القيم

الغريبة بالنسبة للقيم أو التفسيرات السابق التركيز عليها مهما كانت هذه القيم سواء كانت نابعة من التغيرات الاجتماعية أو الاقتصادية في القرن العشرين وتبادل بالقيم الأسامية أو أنها مجرد إعادة تفسير لها .

الصراع في التربية : ويبدو الصراع بين القيم التقليدية والقيم الجديدة في الاختلاف بين الهدف وبين الأثر الفعلي للتدريس ، وبين تأثير مدرس يرغب في وربما يظن أن لديه أثراً والأثر الذي يحدثه فعلاً (١١) . ومن رأى (سبندلر) أن التربويين يميلون عموماً إلى أن يكونوا أقل تقليدية عن العامة من ناحية القيم (١٢) . ويميل شباب المدرسين بشكل واضح على الخصوص نحو القيم الجديدة ثم يليهم كبار المدرسين ثم المديرون . وتميل لجان المدارس إلى مزيد من المحافظة إذ تشكل غالباً من أعضاء المجتمع الكبار الذين نجحوا في الحياة لذلك يميلون إلى مساندة قيم النظام المستقر . وقد يكون الطلبة أقل تحفظاً من مدرسيهم تقريباً . ويعتمد ذلك إلى حد ما على الحد الذي بلغته التوعية بالقيمة في أسرهم سواء التقليدية فيها أو الجديدة ، فإذا كانت تقليدية نجد الأطفال يميلون إلى التمسك بالقيم التقليدية أقل من والديهم وإن كانت جديدة فيميلون لاحتضان القيم الجديدة بمزيد من السرور . ومن ناحية أخرى قد يتخذ الأطفال أيضاً مواقف تقليدية أو تجديدية متطرفة كجزء من ثورتهم على آبائهم أو البالغين بشكل عام .

ويميل المدرسون عن خبرة وعن كبت داخلي لهذه الصراعات الثقافية ولدورهم في نشر الثقافة إلى فعل ذلك مع طلبتهم ومن هنا يحبطون أو يسيئون لكثير من الأهداف المرجوة من التربية . وهم لا ينقلون هذه الصراعات كقاعدة عن عمد وإنما يعكسون دون وعي حالة الثقافة المعاصرة . حقا إن هذه الصراعات تتخلل جميع الثقافة الفرعية التربوية وبوضوح كبير في مناهج ، وطرق التعليم ، وفي الكتب الدراسية ، ووسائل التعليم ، وفي علاقات المدرس بالطالب وفي التدريب المهني للمدرسين .

وهناك أمثلة للنظر والبحث . إن الدراسات الاجتماعية تستهدف ضمن أهداف أخرى ، تعريف الطالب ، بالنظرية والتطبيق للديمقراطية إلا أنهم باستمرار يواجهون الفشل باسم أداء الأمور بطريقة ديمقراطية في فصل الدراسة كما يتم التدريب على المقدرة على التفكير المستقل المجرد الذى يحتاجه الديمقراطية . وأكثر من ذلك نجدهم يميلون لتعزيز عادات السلوك الجماعى السابق وضعها ضمن إطار القيم الجديدة .

وتصل من الكتب الدراسية غالبا معان غير مقصودة . ولقد فحصت دوروثى لى أحد كتب الاقتصاد المنزلى وخمسة عشر كتابا عن الولاية والمدنية تستخدم في مدارس ابتدائية وثانوية ، وذكرت لنا عدداً من التناقضات (١٣) إذ يعلن أحد الكتب بأنه يسعى لمساعدة الطالب للمشاركة في خبرات ذات معنى في المنزل ، وبالرغم من أن الكتاب يقدم كثيراً من التفاصيل عن أنشطة منزلية متباينة مثل اختيار العلاج المناسب ، والحياكة فانه لا يذكر شيئاً عن يسهمون في هذه الأنشطة أو عن سنساعدتهم فيها ، ويقرر كتاب آخر أن هدفه مساعدة الطالب في الاستمتاع بالمنزل (بفعالية) وتذوق الحياة الأسرية ، ولكنه يعالج أعمال المنزل على أساس أدائها بأفضل ما يمكن ، وبحيث يتوفر للمرء مزيد من وقت الفراغ يقضيه خارج المنزل . ويقرر كتاب آخر بأنه يسعى لتطوير شخصية ناضجة (التي قد يظن المرء أنها تدعو للاهتمام بحياة الفكر والتخيل) لكنه يؤكد النواحي الخارجية المتجانسة للشخصية المنقادة للآخرين في الزواج والتصرفات والأشياء المحبوبة ، وتكوين الصداقات ، واستغلال وقت المرء أفضل استغلال . إذن فجميع هذه الكتب تحوى مادة لا تتماشى مع أهدافها المعلنة .

وإذا ما اتجهنا لفصول الدراسة ونظمها فنجد أن كثيراً من المدرسين يسعون لنقل التراث الثقافى باتباع طرق متهاونة متساهجة تسبب في قدر من الحرية لا يتماشى مع الانتباه الذى يحتاج إليه المدرسون لو أنهم عمدوا

لتوصيل التراث بفعالية ، ويصف لنا جولس هنرى على سبيل المثال مدرسى المدرسة الابتدائية الذين يتقلمون دون وعى الظاهرة الثقافية المدروفة (بالعدوان داخل الجماعة) (١٤) . وتستجيب المجموعة مع أفرادها ممن لم يقاوموا العدوان بطريقة الفرد الذى يتجه طبقاً للدافع داخلى ، ولكنه يحاول أن يتعايش مع هذا الدافع . ويضرب مثلاً بمدرس فى الصف الخامس خصص فترة للاستماع لتقارير قصيرة طلب من أعضاء الفصل أن يقرأوها . وكان هدفه إعطاءهم خبرة لتطوير مهارتهم فى الكتابة وكتابة التقارير ، وربما يفترض المرء ، أنه يهدف لمساعدة طلبته للتعلم بطريق النقد . ولكن الحقيقة أن نقداً بناء لم يصدر عنهم كما لم يسع مدرسهم لهذا الهدف ، وقد نتج عن ذلك عكس ما كان يهوى المدرس تماماً إذ اندفع الأطفال فى نقد هدام كل ينقد عمل الآخر ، ولقد تأيدت بذلك عادة العدوان داخل الجماعة التى استمدت جزئياً من الثقافة . بل إن كثيراً من المدرسين يسعون من خلال علاقاتهم مع الطالبة إلى أن يكونوا قادة وموجهين ، ولكن تحقيق ذلك يتطلب الإبقاء على المودة ورغبة الطالب حتى يصل الأمر إلى فقدانهم السيطرة على النظام . ويدخل المدرس المنتظر ، الذى ورث القيم التقاليدية للطبقة الوسطى أو على الأقل الثقافة الفرعية للمؤسسة التدريسية ذات القيم الناشئة بشكل عام . وتميل المؤسسة لمراعاة الغرض الأول من التربية كعين للطفل على العمل واللعب بانسجام مع بقية أعضاء الجماعة الآخرين ، وهذا ما يعوق نمو الفرد غالباً . وهكذا فإن مدرس المستقبل فى موقف يشبه السكان الذين يكتسبون الثقافة والذين يجب أن يتناولوا بشكل ما الصراع بين ثقافتهم والثقافة الجديدة التى يتزايد قبولهم لها .

وقد تكون استجابة المدرس من عدة اتجاهات : فإذا ما شعر بتهديد القيم الجديدة له فقد يعمل على تأكيد قيمه القديمة بشكل إصرارى ويقدمها دون تعديل فى حجرة الدراسة . وقد يبالغ فى تعويض الاتجاه الآخر بقبول القيم الجديدة دون نقد ويسعى لتحقيق انسجام الجماعة بأى ثمن . فإذا لم

يكن ممن يراجعون أنفسهم فسيستوعب داخله كلا الاتجاهين المتصارعين دون تحليل في صورة إطار لقيم ثابتة خاصة به . وفي الحالة الأخيرة سيتردد بين مختلف أساليب معاملة المجموعات والأفراد ، وخلال عدم ثباته فسيوقع نفسه وتلاميذه في المتاعب . وأخيراً فانه إن كان مفكراً وثابتاً فقد يعترف بالصراع دون أن يشعر بأن ذلك الأمر يهدده وفي هذه الحالة فانه سيحلل عناصر كلا النموذجين ويضعها في نظام متلاحم مرتبط به . وسيذبح في حجرة الدراسة طريقاً وسطاً بين التطرف الفردي والتطرف الجموعي . ويعتقد سبندلر أن هذا النمط من المدرسين أصبح أكثر عدداً ولكنه لسوء الحظ لا يمثل سوى الأقلية (١٥) .

ويرى سبندلر أن كلا النمطين من المدرسين ينقلان نقلاً محدوداً جداً . فالأول لأنه يوصل ما يتعارض مع معرفته المعلنة ونواياه وإن كان يحرز فعالية مع أطفال الطبقة الوسطى فحسب ممن يشاركونه قيمه ، أما الآخر فلأنه يهدف إلى تحقيق الانسجام الجماعي ولا يعطي للأفراد سوى اهتمام قليل . وقد يؤثر كلا المدرسين في عدد قليل من الأطفال لكنهم سيفشلون في التأثير على الغالبية . ويصل النوع الثالث إلى عديد من الأطفال بطرق كثيرة ولكنه ضعيف جداً وغير مستقر بحيث يمكنه أن ينقل الثقافة بفعالية ، ومن جهة أخرى يستطيع المدرس الرابع ، وقد حل أفضل العناصر لكلا النموذجين من القيم أن يصل لمزيد من الأطفال بطرق عديدة ولهذا فانه « ينقل ما عنده على قنوات عديدة » .

ويمتدح سبندلر ، عند معالجة مشكلة النقل العرضي للصراعات الثقافية ما يسميه (العلاج الثقافي) (١٦) . إذ يستطيع المعالج الثقافي في حالات قليلة دراسة المدرس على أفراد وفي حجرة الدراسة وأن يوضح له كيف تضيق القيم التي اكتسبها اتجاهاته مما يمكنه من تعميق وتوسيع معالجته . إلا أن سبندلر وقد رأى أن هذه العملية تستهلك كثيراً من الوقت والجهد اقترح

أن توضع المعلومات المكتسبة في هذه الحالات تحت تصرف الطالب الذي يدرس ليتخرج مدرساً في المقررات الدراسية الأساسية حتى يمكن مساعدته على فحص قيمه المكتسبة قبل أن تظهر تحت ظروف حجرة الدراسة .

إلا أن ذلك يتسبب في حيرة ، ذلك أن ما ينقل من صراعات ثقافية إلى الأطفال في المدرسة له فوائده في الإسهام في تباين الشخصيات وهو ما يؤدي إلى الابتكار أو التجديد الثقافي ، وأحد حلول هذه المشكلة هو أن يعترف المدرس بوجود هذه الصراعات بمزيد من الوضوح حتى عند نقلها للتلاميذ ومن الأفضل نقل صراعات مختارة فحسب . إلا أن خطراً آخر يكمن هنا أيضاً ذلك أننا لو تحكمتنا في الصراعات التي ننقلها فأننا سنميل إلى نقل الثقافة بشكل ضيق ، ومن هنا نشجع النمطية . ولنفرض من ناحية أخرى ، أن المدرس يسعى إلى أن يكون متخبراً ، ومن هنا يتمكن من اختيار ما يثير أكبر عدد من الأطفال . والسؤال هو : هل يستطيع في نفس الوقت أن ينقل التراث الثقافي بفعالية إلى كل من هؤلاء الأطفال ؟ إن هذا يثير أمامنا مشكلة نظرية لم يحلها التربويون بعد ، وهي أنه يجب أن نعرف ونسيطر على الصراعات التي ننقلها المدرسون ، ولكن إذا تمكنا من تحقيق ذلك فإنهم يكونون في موقف يمكنهم من الاتجاه إلى النمطية غير المرغوبة .

القيم السائدة ضد قيم الأقلية :

الصراع في الثقافة : يعيش كثير من أفراد مجتمعنا خارج الثقافة السائدة وهي ثقافة الطبقة الوسطى بشكل عام (١٧) وهم لم ينشأوا فيها ولا يتطلعون إليها ، ويتسبب الفقر والجنس أو السلالة في فصل كثيرين عنها كما تتسبب قلة التعليم في فصل عدد كبير منهم (١٨) .

ولما كان فضل التربية عليهم قليلاً فإن كثيرين منهم لديهم عقيدة ضعيفة فيما يمكن أن تؤديه لأطفالهم ومنهم من يتوقعون لتعليم أولادهم تعليماً طيباً يمكن أن يعاونهم ولو معاونة ضئيلة لأنهم ذاتهم يفتقرون للتعليم الرسمي .

ويشتد هذا الاغتراب عن ثقافة الغالبية بوجه خاص بين من ينحدرون من أصل غير أوروبي، وسأتناول منهم الأمريكي المكسيكي ، والأمريكي الزنجي بوجه خاص (١٩) .

ولا يوجد وجه شبه بين الزوج والمكسيكيين إلا أنهما يتفقان في انتمائهما إلى الثقافات الفرعية . إلا أن الزنجي من الناحية التقليدية كان دائماً أقرب من المكسيكي إلى الحياة من حوله وتعكس ثقافته بمزيد من الوضوح القيم الأمريكية السائدة . أما المكسيكي فيميل إلى عزل نفسه جانباً . وبالنسبة للتفرقة فإننا نجد أن الزنجي قد يعارضها بينما ينسحب المكسيكي ويغطي مراجعه غالباً بالأدب ودماثة الخلق ، ويميل المكسيكي إلى عدم حضور المؤتمرات المدرسية واجتماعات مجالس الآباء والمعلمين فإذا طلبت منه المدرسة التعاون في مراعاة مواظبة ابنه أو التنبيه على ابنته لأداء واجباتها المنزلية فانه يرد بأنه ينوى عمل ذلك . إن أسلوبه لتجنب الصراع هو الأدب والتسويق (٢٠) .

وقد كتبت روث لانديز تقول : إن الثقافة المكسيكية أكثر تسلطية من الثقافة الزنجية ، ويختلف الطفل المكسيكي عن أغلب الأطفال الأمريكيين الآخرين من بيض أو زنوج إذ يتوقع منه انتظار التوجيه من البالغين ، وغالباً ما يكونون من الآباء أو كبار الأقارب وذلك دون السماح لهم بممارسة المبادأة الفردية .

وتكتب لانديز تقول : إذا أريد منهم أن يتصرفوا بمبادأة في المدرسة فانه يتحتم أن يتعلموا كيف يتخلصون من عاداتهم التقليدية ألا وهي الانصياع للآخرين . ويتحتم على مدرسيهم أيضاً معاملتهم بمزيد من الحزم أكثر مما يفعلون مع بقية الأطفال الأمريكيين .

ويجب على مستشاري المدارس أن يتخذوا لصالحهم عديداً من القرارات ويجب أن يتابع إداريو المدرسة قراراتهم بمقابلة الآباء شخصياً والاتصال

بهم بالخطابات والتليفون وهى أساليب قد يعتبرها بقية الأمريكيين تدخلا أو تسلطاً (٢١) .

وتستمر لانديز تقول : إن المرأة الزنجية تتمتع بحرية تشبه حرية المرأة البيضاء . ولا يدهش الآباء الزوج إذا ما تولت تعليم أبنائهم مدرسة أو مسيرتهم لبعض عادات تكوين صداقات مع الجنس الآخر والذي تشجعه فى الحقيقة المدرسة ذاتها . أما المرأة المكسيكية وبخاصة الشابات وغير المتزوجات فليس من المنتظر منهن تقلد مراكز السلطة ولهذا لا يحس الآباء المكسيكيون بالراحة إذا ما تولت تعليم كبار أطفالهم مدرسات شابات وغير متزوجات ويحسون بالخزى إذا ما اكتسبت ابنتهم بعض الاستقلال الجنسى مثل الفتاة الأمريكية العادية (٢٢) .

ويميل طفل الطبقة الوسطى البيضاء إلى أن يأتى إلى المدرسة بنظرة مختلفة تماماً عن نظرة طفل الطبقة الدنيا سواء بيضاء أو ملونة . فنذ طفولته وما تلاها كان محل رعاية وتغذية وكساء من والدين لديهما الوقت والمال للإنفاق عليه . لقد أظهرت أمامه منذ البداية الرقة والفهم والكبرياء والود . إنه يحس بالثقة ويحس بالراحة فى عالم يفترض أنه سيلاقى فيه النجاح كأمر طبيعى . وما إن يكتسب الحافز وإنجاءات والديه فانه يصير هادفاً واثقاً فى نفسه .

ونادراً ما يعرف أبناء الفقراء مثل هذه المشاعر . فلا وقت لدى والديهم ليخصصاه لهم . فالأب مرهق جسدياً وربما يعانى من البطالة الزمنية ، والأم تعمل أو تتحمل فوق طاقتها من الأعمال المنزلية ، ولا يكثر عالم الطبقة المتوسطة البيضاء بهم بل وربما كان معادياً لهم . ولما كان الهدف يعوزهم فانهم يفتقرون للطموح ويحسون بالاغتراب فى المجتمع الواسع ، ولديهم إحساس ضئيل بالغرض من وراء حياتهم ، ويستثنى من ذلك المكسيكيون إذ أنهم أقل نظاماً وبخاصة جنسياً عما هو الحال بين أطفال الطبقة الوسطى

ويعبرون عن أنفسهم بمزيد من الانطلاق ، وبدلاً من كبت ميولهم حتى يكافحوا من أجل بناء المستقبل فإنهم يميلون لأن يعيشوا لحظتهم .

الصراع في التربية : تنص المدرسة الأميركية العادية بقيم الطبقة المتوسطة . إذ يتوقع من الطلبة الأدب واتباع التعاليم واحترام ملكية الآخرين ، وتشجيع العمل الشاق والرياضة ، وفوق كل ذلك الطموح . ولقد اعتاد الطفل من الطبقة المتوسطة فعلاً كل هذه القيم فوجد أن مدرسيه أعضاء الطبقة المتوسطة يستجيبون له بفهم وتقدير . إلا أن كثيراً من هذه القيم قيم غريبة بالنسبة لطفل من الطبقة الدنيا . إذ لا يحس بذاته كجزء من المدرسة لاختلاف قيمه عن قيم المدرسة .

ولهذا فنادر ما يفلح أطفال الطبقة الدنيا الموهوبون في المدرسة مثلما يفلح قرناؤهم من أطفال الطبقة الوسطى حتى ولو كانوا أقل منهم استعداداً وبعضهم لا يكمل الدراسة بالرغم من قدرتهم الفكرية على الاستمرار (٢٣).

وتسبب ثقافة الطبقة المتوسطة في المدرسة إلى الطفل بطرق لا حصر لها . إنه لم يألف لغة المدرسة . وتتمشى الكتب الدراسية أيضاً مع اتجاهات الطبقة المتوسطة وبخاصة الطموح وتصف الأمثلة التي يعرضها أفراد الطبقة المتوسطة في مواقف خاصة بهذه الطبقة . إنه لا يحس بالارتياح مع مدرسيه إذ يتحدثون ، ويلبسون ، ويفكرون بطريقة مختلفة عنه ويتقنون أشياء لا يقدرونها . كما تبدو له الموضوعات التي يدرسها : كالنحو ، والتاريخ والعلوم ذات صلة بسيطة أو لا تتصل إطلاقاً بالظروف المريعة وأحياناً المؤسفة التي يتحتم عليه التفاعل معها بعد تركه المدرسة . كما قد تنتهك لوائح المدرسة ذاتها ما اعتاده من دروب (٣٤) .

فكيف يستطيع المربون تذليل الاختلافات الثقافية التي تعوق الانصال

الفعال ؟

أولاً : يجب أن يدرس التربويون الثقافات التي يتربى في ظلها الأطفال حتى يتسنى فهم التوقعات والآمال التي يحملها الأطفال إلى المدرسة . يجب استخدام هذه المعرفة في تطوير أساليب ملائمة لجميع نواحي العملية التربوية . وسيكتشفون أن عديداً من المشاكل تنبع ليس من انحراف مزاج التلميذ أو والديه ولكن من سوء تفسيرهم لطرق الحديث والتصرف التي اعتادوها . وتحكى لنا (روث لانديز) حالة صبي ذكي نابه ولكنه أمريكي من أصل كوري وغير منتظم وكان منعزلاً تقريباً عن مدرسته لأن سلطات المدرسة لم تفهم تقاليد والده الكوري الثقافية . وقد حاول ممثلو المدرسة باصرار الوصول إلى الأم دون أن يعوا تبجيل الكوريين لرب الأسرة وأخيراً تعاون الأب مع المدرسة في السيطرة على الطفل عندما تفاهموا معه بالطريقة التي اعتادها (٢٥) .

كما يجب أن يفحص المدرس تأثير الثقافة على سلوكه الخاص فإذا لم يعلم الرموز الثقافية التي يصدرها فلن يفيد سوى القليل إدراك إشارات تلاميذه ، ويتحتم من الناحية المثالية أن يتم هذا الفحص الذاتي أثناء تدريبيه وإن كانت التجربة التعليمية الواقعية للمدرس الواعي أعظم مرشد (٢٦) .

إن طفل الطبقة الدنيا وبخاصة طفل الأقليات ، نتيجة لشعوره بالاغتراب عن المجتمع الواسع ، يفتقر إلى الدافع كي يهدف إلى أهداف مهنية قد يتمكن من بلوغها ، ولذلك فإن واجب المستشار المدرسي غرس المطامح المهنية التي لا تلقى تشجيعاً من والديين والمجتمع والرفاق (٢٧) إذ يقدم مثلاً لذكور بالغين ناجحين يمكن لطفل الطبقة الدنيا أن يقلدهم وبهذا ينمي مطامح طويلة المدى تخص الطفل ، وينمي كذلك عوامل الصفات الشخصية اللازمة لبلوغها . كما أن زيادة المنح الدراسية التي تقدمها مؤسسات التعليم العالي لتعريف الطالب بأمثلة من أشخاص مهنيين من ذات جنسه أو دينه الوطني أو لهم نفس الخلفية الطبقية وكذلك لتشجيع والديين للتعاطف مع ما استجد من مطامح لدى أطفالهم مما يعد من وسائل تشجيع الطموح الأكاديمي والمهني .

فاذا تمكنت المدرسة من جذب اهتمام الوالدين أو تعليم أطفالهم فقد سارت شوطاً طويلاً نحو التغلب على الاختلافات الثقافية (٢٨) . ويتحتم على المدرسين والمديرين أن يكسبوا ثقة الوالدين اللذين يعتبران المدرسة مجرد قوة غريبة تسيطر على حياتهما ، ويتحتم على المدرسة لبلوغ هذه الغاية أن تقدم للوالدين دراسات في بعض الموضوعات العملية مثل الاختزال ، والحديث ، والآلة الكاتبة ، والحياكة ، وصناعة قبعات السيدات وكذلك دراسات تنشيطية في القراءة ، والحساب ، وموضوعات أكاديمية كتلك التي تساعد على دراسة الميزانية ، وإعداد الطعام ، وإصلاح الأثاث ، والواجبات المنزلية وعلاقات الأسرة بوجه عام .

القيم الثقافية والفكر التربوي

المذهب التقدمي :

ولنتجه في النهاية لنرى آراء النظريين التربويين في مشكلة دور المدرسة في تطوير بعض القيم الثقافية . يرى التربوي التقدمي أنه مادامت جميع الظروف في المجتمع عرضة للتغير ، كما لا توجد طبقة إنسانية ثابتة فإن جميع القيم بالضرورة مؤقتة . فالتصرفات السليمة لا تتجلى في الالتحام بمستويات المعايير الثابتة أكثر منها في التصرف المرتكز على التأمل ، إذن يتحتم على الطالب أن يتعلم القيم ليس كما هي ولكن أن يكتشفها من خلال التفكير المتأمل . فلا يتقيد بتطبيق مجموعة قوانين سلوكية على ظروف الحياة المتغيرة المرنة ولكن يجب أن يتعلم التقدير المسبق للنتائج المحتملة التي تؤثر عليه وعلى الآخرين في مجالات التصرف الأخرى (البديلة) المتاحة له من مواقف بعينها . كما يقترح المدرس القيم التقليدية للثقافة الغربية كافتراضات أي الصالحة منها التي ثبت نفعها لمدة طويلة في تكييف الناس للظروف ومع بعضهم البعض إلا إنها مجرد فروض يتحتم على الطالب اختبارها ليرى إن كانت تساعد على حل مشكلاته الحالية (٢٩) .

يوثمن التربوى التقدمى أن المدرسة تعجز فى مجتمع الديمقراطية الجمعية أن تملئ على الطالب القيم الهرمية الموروثة . إلا أنها تستطيع التأثير على اختيار الطالب للقيم بدعوته للنظر فى بعض القيم بدلاً من أخرى كجزء من تعليمه العام . ويتحتم على المدرس كى يضمن مشاركة جميع التلاميذ للتجربة المشتركة لإدراك القيم فى خلفية معاصرة أن يستخدم أساليب كثيرة ومواد متنوعة ، وإلا لو أعطينا كتاباً واحداً لكل طالب كى يقرأه فإن كلا منهم سيتجه لما يروق له من أفكار بدلاً من مشاركة رفاهه نفس التجربة العامة (٣٠)

ولا يتسنى السيطرة بسهولة على التغير الاجتماعى والثقافى فى الثقافة الموجهة من الخارج . إذ يفتقر الناس إلى قيم راسخة لتقدير أى التغيرات مرغوبة وأياها مرفوضة . ولم يعد سوى القليل من التقدميين من يرى إمكان وجود استقرار فى عملية التغير ذاتها . ويتحتم كى يجد الطالب التسلسل الهرمى من القيم أن يتعلم كيفية فحص القيم التى تدفع لكثير من السلوك المعاصر حتى لا يتقبل سلوك المحيطين به كما هو دون تقييم لفروضه ونتائجه . كما يجب أن يدرس النواحي المتباينة ومشاكل الثقافة المعاصرة مثل : الإعلان ، والسيارة ، والطلاق حتى يفهم ما تتضمنه من قيم ، وأن يحكم عليها حكماً ذاتياً . وسوف يكون أقلر على دراسة السلوك الحالى والحقائق بدلاً من القضايا المجردة أو التاريخية ذلك أنه سيعمل لنفسه هرمًا قيمياً واقمياً يرتبط بالعالم الذى يجب أن يعيش فيه (٣١) .

المذهب المحافظ :

إن وجهة النظر المحافظة فى نطاق القيم فى التربية تتخذ لها نموذجين : التواترى والجوهري . فالتواترى يوثمن بتراكم مطلق من القيم ويعارض الوضع القائم بتمسكه بأن واجب المدرسة هو أن تغرس هذه القيم . ويعبر عن ذلك هتشز فى كلماته التالية :

« إن هدف التربية الأول هو معرفة ما يصلح للإنسان ، أى معرفة ترتيب ما يصلح له . فهناك هرم من القيم وواجب التربية هو مساعدتنا على فهم هذه القيم وتأصيلها والتعايش معها (٣٢) .

ويرى الجوهريون أن المدرسة تغرس القيم الخلقية الهامة فى تطويرها للفكر والتفكير المتأمل على الرغم من أنها ، أى المدرسة ، يجب ألا تعطى تدريباً خلقياً صريحاً . كما يتحتم أن تؤثر المدرسة فى الخلق الشخصى لتلاميذها بأن تضمن توجيه أنشطتها وفقاً للمعايير الخلقية التى يفهمها التلاميذ بوضوح : لذلك يجب أن تشجع تلاميذها على الأمانة فى عملهم ويتحتم أن تكافئهم وفقاً لأدائهم الفعلى كما يتحتم أن تنزل الأنشطة الفكرية الجادة منزلة عالية ويقرر هارى براودى أن المدرسة تربي تربية خلقية عندما تشجع الاهتمام بالحقيقة والعقل وتساعد التلميذ على استخدام مواهبه أفضل استخدام وأن يبادر إلى معرفة ذاته بجعل التلميذ يفكر فى نفسه وأن يختبر قدراته بنفسه (٣٣)

ويدافع عن وجهة نظر المحافظين ا. ب. بركسون إذ يرفض الرأى التقدمى الذى ينحول للطفل تكوين سلسلته القيمية . ويرى أنه يتحتم على المدرسة أن تعلم قيم الثقافة الغربية والتى يمكن الاعتماد عليها كثيراً أكثر من أحكام الطالب (٣٤) كما ينتقد النظرة التقدمية فى تدريب الشخصية بتقليد المواقف فى الحياة الواقعية . ويشير إلى أن القضايا الخلقية الرئيسية فى حياة البالغ مثل تلك المتعلقة بالزواج أو حياة المرء العملية إنما هى قضايا معقدة بحيث يتعذر على المدرسة أن تكررهما إطلاقاً بشكل كاف . ويتحتم على المدرسة بدلا من ذلك أن تدرب الشخصية بطريقتين : بتعليم الطفل المعايير المعاصرة ومن هنا يتم الاستقرار الاجتماعى ، وتمكينه من انتقاد وتحسين هذه المعايير عندما يصبح بالغاً وذلك بتعليمه المثاليات الخالدة من الثقافة (٣٥) .

و يتمسك كلا النموذجين المحافظين بأن مسئولية الوالدين هى تعليم الطفل

بعض القيم التي يمكن أن يقومها بنفسه فيما بعد ، أما تربيته دون معايير ثابتة فلا يعتبر تحرراً بل اضطراباً له . ويتحتم على المدرسة في ذات الوقت أن تقدم له التدريب العقلي الذي يحتاجه إن كان له أن يقدر هذه القيم موضوعياً في حياته المقبلة . ولما كان محتماً على الوالدين ألا يتظاهروا من أجل الطفل باتباع القيم التي لا يؤمنون بها فما زالت مسؤوليتهم في تلقين تلك القيم التي يؤمنون بها للطفل ، ويقول أحد علماء نفس الطفولة : يحتمل أن تكون المحاولات المعتمدة لتربية الطفل في جو من النسبية محاولات مضللة . ويحتمل أن تكون النتيجة أفضل عندما يرتبط الأطفال بمجموعة من المعايير الثابتة وفي ذات الوقت فتعطيهم التربية التي تمكنهم فيما بعد من ممارسة التوجيه الذاتي وذلك لأسباب تتصل بنموهم العاطفي والعقلي إلى الحد الذي يمكن به فصلها (٣٦) .

لقد أوضحت في هذا الفصل تأثير القيم الثقافية على النظام التربوي ولقد بحث للوصول إلى هذه الغاية موضوعات رئيسية ثلاثاً : الاختلاف بين الثقافة المثالية والواقعة ، والصراع في القيم المتسبب عن التغير الثقافي وعدم المساواة بين القيم السائدة وقيم الأقليات الثقافية . ولقد أوجزت باستعراض آراء النظريين التربويين الرواد في تفضيل تلقين المدرسة للقيم وذلك لمساعدة مدرس المستقبل ليقرر بنفسه كيفية تطوير قيمه المختارة .